

## الوحدة الدلالية بين المعجم والسياق عند البشير الإبراهيمي

هأ. زهر الدين رحمانى

جامعة البشير الإبراهيمي - برج بوغريريج -

### مقدمة:

يحتاج الإنسان في بناء علاقاته الاجتماعية إلى وسيلة للتعبير والتواصل مع الآخرين، ولا يتم له ذلك إلا بواسطة اللغة التي تعبر عن حاجياته وأفكاره، فإذا كانت اللغة هي ما "يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"<sup>1</sup>، فإن كل لفظة تدل على معنى يتم تصوره في الذهن وهذا شيء بديهي، لكن ما هو بحاجة إلى الدراسة والتحليل هو تلك العلاقة التي تقوم بين هذين العنصرين، أي بين اللفظة والمعنى أو ما يطلق عليه علماء النفس اللغوي بالمدلول، هذه المسألة طرحت جدالاً بين الفلاسفة وعلماء النفس حول نوع العلاقة الموجودة بينهما، حيث نجد هناك من اعتبر أن هذه العلاقة تتحكم فيها الضرورة وبالتالي فهي طبيعية، والبعض الآخر تجاوز ذلك إلى الاصطلاح. ومن هنا نتساءل: ما هي طبيعة العلاقة بين الكلمات ومعانيها في كتابات البشير الإبراهيمي؟ وهل هي عنده قائمة على الصلة الطبيعية بين صيغة الكلمة ومعناها أم أنها نتيجة العرف والاتفاق والاصطلاح؟

إذا حاولنا النظر في سيرة العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي -رحمه الله- نجد أنه كان شخصية عادية، وإنما كان مجموعة من المواهب والعبقريات، إذ قال فيه ابن إبراهيم الكتاني: "كان آية في علمه الواسع وأدبه الرفيع وخلقه النبيل ودينه المتين وإخلاصه وسعة أفق تفكيره وبعد نظره، وإنكاره لذاته وتفانيه في خدمة أمته وتوفيقه في أعماله وأقواله وحسن تربيته لطلبته وللجماهير المتصلة به وتسخيره كل ما هو عزيز لتعليم أمته ورفع مستواها، واستغراق أوقاته في مواجهة المشاكل الوقتيّة، وتضحيته بحظ نفسه في القراءة والمطالعة والتأليف، ووفائه العدم النظير لأصدقائه وأحبابه، ونجاحه في أن يحول الجزائر - مع أصدقائه ورفقائه وتلامذته

وأعوانه من الحالة التي كانت عليها في أعقاب الحرب العالمية الأولى - إلى جزائر الثورة المباركة معجزة الإسلام الكبرى في العصر الحديث"<sup>2</sup>.

ولا يستطيع دارس أن يعرف حقيقة الدور الذي قام به الإبراهيمي - العالم المرابي المصلح الثائر المجاهد - إلا إذا عرف دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وما قامت به في الجزائر من إحياء لما مات، ومن تجديد لما رث، ومن تجميع لما افترق، ومن بناء لما تهدم، ومن تطهير لما تلوث. وقد كان البشير الإبراهيمي شريكاً مع مؤسس الجمعية وباني النهضة الجزائرية الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس، فقد كان نائبه في حياته، وخليفته بعد وفاته. وقد كانت جريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وقد جمعت هذه المقالات (137) مقالة في مجلد واحد سنة 1963، وطبعت بدار المعارف بمصر بإشراف الشيخ البشير الإبراهيمي نفسه، ثم بعد وفاته في (20 ماي 1965) نشرت بالجزائر (سنة 1971م) ثم (سنة 1981) ضمن سلسلة آثار محمد البشير الإبراهيمي وشكلت الجزء الثاني، بالمؤسسة الوطنية للكتاب.

### 1- المعجم والاستعمال:

عرف المعجم عدة تعريفات، فقد ورد تعريفه في المعجم الوسيط: هو "ديوانٌ لمفردات اللغة مرتَّب على حروفِ المعجم"<sup>3</sup>، فتقييد بذلك بتعريفات المعاجم القديمة، ولم يفد من الأبحاث الحديثة في هذا المجال.

أمّا معجم (Le Robert) فيتوسع في تعريفه، على أننا سنأخذُ منه تعريفين هما:

أ- "مجموع الكلمات التي يوظفها شخصٌ ما".

ب- "مجموع الكلمات التي يوظفها كاتبٌ ما في عملٍ أدبي"<sup>4</sup>.

وبذلك يُدخل هذا التعريفُ المعجمَ إلى ميدانِ البحثِ الأدبي بكل تشعباته، ولا يتركه محصوراً في ميدانِ البحث اللساني المختص بالمعاجم اللغوية، على أن المعجم الأدبي - لكاتب ما - يختلف اختلافاً بيناً عن المعجم - كما عرّفه المعجم الوسيط وغيره من المعاجم اللغوية - فإذا كان البحثُ في المعجم يعني الوقوف على معانٍ محدودة للكلمة وسعيًا إلى حصرها، فإنَّ

البحث في المعجم الأدبي هو بحث في السِّياق الذي تخضع له الكلمة، مع احتمالِ خضوعها لانزياحات تبعتها عن معناها المعجمي الأصلي<sup>5</sup>.

وعلى هذا الأساس يُمكن التمييز بين مستويين لدلالة الكلمة:

أ- الدلالة العادية؛ أي: دلالة الكلمة الاصطلاحية المتفق عليها.

ب- والدلالة المكتسبة؛ أي: دلالة الكلمة التي إلى جانبِ ذاكرتها، اشتملتْ على ذاكرةٍ

جديدة غير مألوفة<sup>6</sup>.

وهذه الحقيقة أشار إليها أيضاً بيار غيرو (Pierre Guiraud) في تمييزه بين المعنيين؛ الأساسى والسياقى للكلمة، حيث رأى أن: "لكل كلمة معناها الأساسى ومعناها السياقى"<sup>7</sup>، كما أشار إليها الباحثُ (علي آيت أوشان) في تمييزه بين المعنيين؛ التعيينى (Le Sens dénotatif)، والتضمينى (connotatif) للكلمة؛ حيث: "يمثل التضمين (connotation) مختلف الاستعمالات التحويلية للكلمة أو العلامة، هذه التحويلات تنقل الكلمة من مستوى الدرجة الأولى (التعيين) إلى مستوى الدرجة الثانية (التضمين)، حيث يتوسّع فيها المدلول متحرراً من كلّ تقييد معجمي"<sup>8</sup>، وبهذا يكون النصُّ الأدبي قائماً على التضمين الذي قد يحتوي قدراً كبيراً من الانزياح.

وهكذا يكتسب المعجم في الإبداع الأدبي صفةً "الملكية الشخصية"، بينما هو في المعاجم اللغوية "ملكية جماعية" مستمدة من الذاكرة الجماعية ومن تراكم الاستعمال اللغوي المشترك للكلمة.

لهذا تبنى التعريف الذي قدمته الباحثة البحرينية "بروين حبيب" للمعجم الشعري بأنه: "القاموس اللغوي للشاعر، والذي تكون من خلال ثقافته وبيئته ومناخه الذي عايشه"<sup>9</sup>.

على أن خضوع مجموعة من الشعراء - أو الكتاب - العظام لتأثيرات مشتركة أو لبيئة مشتركة لا يعني إنتاج معجم شعري مشترك؛ إذ يبقى لكل منهم معجمه الخاص<sup>10</sup>، لكون المعجم الشعري خاضعاً للسياق كما بينا.

## 2- دراسة المعجم والاستعمال عند الإبراهيمي:

بما أنّ البحث في المعجم هو بحثٌ في الدلالة، فإنّ مجموعة من الدراسات اللسانية الحديثة قد ربطت المعجمَ بعلم الدلالة، ونشأت بذلك نظرياتٌ تهتم بدراسة المعنى المعجمي؛ نكتفي بالإشارة إلى اثنتين منها لأهميتهما في موضوعنا الذي نحن بصدده:

### أ - النظرية السياقية:

هو الاتجاه الذي عُرفت به مدرسة لندن، وهي تهتمُّ بالنظر إلى السياقات المختلفة التي وردت فيها الكلمة؛ من أجل الوقوف على معناها<sup>11</sup>؛ حيث يرى "فيرث Firth" أنّ معنى الكلمة لا ينكشف إلا من خلال وضعها في سياقاتٍ مختلفة، وهذا السياقُ يشمل حسب (K. Ammer) السياق اللغوي والسياق العاطفي وسياق الموقف والسياق الثقافي<sup>12</sup>.

وقام جورج ماطوري (Georges Matoré) انطلاقاً من منهجه البنوي المفتوح في دراسة المعجم<sup>13</sup>، بمعارضة بنوية دي سوسير (Saussure) التي تدرس الكلمة في ذاتها، ولهذا فهو يرى أنّ الكلمة لا يجب أن تُفصل عن سياقها اللغوي والاجتماعي؛ فهو يقول: "إن الكلمة لا توجد داخل شعورنا منعزلة، إنّها جزء من سياقٍ ومن جملة يقومون بتحديدتها جزئياً، وهي أيضاً مرتبطة بكلماتٍ أخرى تشابهها في الصيغة أو الصوت أو المعنى"<sup>14</sup>.

ويميل "بيار غيرو" أيضاً إلى تبني مفهوم السياق؛ إذ يرى أنّ الكلمات ليس لها معنى و"إنما استعمالات شتى"؛ حيث إنّ "المعنى كما يصلنا في الخطاب يخضع لعلاقات الكلمة مع غيرها من الكلمات المتواجدة ضمن السياق ذاته"<sup>15</sup>، ويرى "غيرو" أنّ السياق يسعى إلى إخفاء المحتوى الدلالي الأساسي للكلمة، لكنّه لا يسعى أبداً إلى محوه؛ لأنّ محوه يؤدي إلى إفساد المعنى<sup>16</sup>، وبهذا يضع للانزياح الدلالي للكلمة في السياق حدوداً تجعلها أبداً ذات صلة بمعناها المعجمي.

وقد نقل بعضُ الباحثين العرب مفهومَ السياق إلى مجال التنظير للنقد الأدبي، فذهب "علي آيت أوشان" في "السياق والنص الشعري" إلى بيان أهمية السياق في القراءة النقدية، معارضاً بذلك سيادة المفاهيم البنوية، التي تنصب على النصّ وحده، قائلاً: "الواقع أنّ

السياق أداة إجرائية فعالة لا يمكن الاستغناء عنه؛ إذ يلعب دورًا أساسيًا في تحديد المعنى وفهم الملفوظات، خاصةً إذا أخذناه بمعناه الواسع، حيث يستدعي ما هو اجتماعي وتاريخي وثقافي ونفسي<sup>17</sup>.

ويُنبه "صلاح فضل" إلى أهمية السياق في دراسة المعجم الشعري؛ حيث يقول: "إنَّ البنية اللغوية في الشعر لا تتحدّد بالكلمات، بل بالصيغ، وعندما يتم تفكيكها إلى وحدات دنيا بحثًا عن أعدادها وحقولها وتبادلاتها، تكون قد فقدت مواقعها في منظومة التركيب الشعري، وهي التي تمنحها أبرز فعاليتها الوظيفية موسيقيًا ودلاليًا"<sup>18</sup>.

غير أن مبالغة أنصار السياق في تعليق الأهمية عليه على حساب المعنى الأساسي - لقي معارضةً شديدة من قبل الناقد البنوي "جان كوهن" الذي كان يهتم بإيجاد معيار موضوعي ومتعارف عليه للمعجم، يسمح بقياس درجة الانحراف الشعري عنه<sup>19</sup>، فقد عارض هذا الناقد ما تقوم به بعض المعاجم، ومن بينها معجم "ليتري"؛ من تعريف الكلمة بجرد السياقات التي ترد فيها زاعمة أن: "معرفة كلمة ما، هو معرفة للجمل التي يمكن تشكيلها انطلاقًا منها"<sup>20</sup>، ثم ذهب مؤكدًا أهمية المعنى الأساسي المتعارف عليه في دراسة السياق نفسه، إلى أن معرفة معنى الكلمة هي معرفة: "إمكانية القول: القط يموء، القط ينام، وعدم إمكانية: القط ينبخ، والقط يطير، ويجوز إضافة إلى هذا القول: القط أسود، ولا يجوز: القط المثلث"<sup>21</sup>، وبهذا يكون المعجم اللغوي عند "كوهن" مرجعًا لقياس مقدار الانزياح الذي تمثله الكلمة داخل السياق الشعري، حتى لا تنتهي إلى فقدان وظيفتها التواصلية.

وهذا البعد التواصلى الذي حذر "جان كوهن" من ضياعه - إذا سلمنا تسليمًا كليًا بمفهوم السياق - عدّه أحد الباحثين العرب المعاصرين معيارًا لدرجة الانزياح التي يمكن للشاعر إتاحتها أمام معجمه الخاص، حتى يبقى محافظًا على علاقته بالمتلقي دون أن يفقد وظيفته الجمالية: "يتحتم على الشاعر عند اختيار معجمه الشعري أن يحافظ على أدنى ما في الكلمة من مضمون وضعي يتيح له التواصل مع المتلقين، في الوقت الذي يسنخ له برسم حدودا واسعة للغة وشعرية عالية القيمة الجمالية، عظيمة الإيجاء والإشارة والرمز"<sup>22</sup>.

وبهذا يمكن القول بأنه إذا كان أهم ما يميز المعجم الشعري هو أنه سياقي بالدرجة الأولى، فإنه لا يؤدي وظيفته التواصلية إلا إذا حافظ على علاقته بالمعجم اللغوي، وكف السياق عن "محو" المعنى الأساسي ليكتفي "بإخفائه"؛ على حدّ تعبير "بيار غيرو"، ومن ثمّ فإنّ الفرق بين القول بالسياق الشعري الذي لا يعترف بالمعيار، والقول بضرورة مراعاة السياق مع مراعاة المعيار، هو في العمق فرقٌ بين توجهين: أحدهما يدعو إلى التواصل، والآخر يدعو إلى القطيعة.

### ب - نظرية الحقول الدلالية:

وهي نظريةٌ تعنى بدراسة الكلمات من خلال تجميعها في حقول دلالية<sup>23</sup>؛ حيث ترى هذه النظرية أنه: "لكي تفهم معنى كلمةٍ يجب أن تفهم كذلك مجموعة الكلمات المتصلة بها دلاليًا"<sup>24</sup>.

وأهم ما يميز أنصار هذه النظرية هو اتفاقهم على ضرورة مراعاة السياق الذي ترد فيه الكلمة<sup>25</sup>. ويعد "جورج ماطوري" من بين الذين اهتموا بفكرة تصنيف المعجم إلى حقول أثناء دراسته، لكنه يعترف بأنه ليس أول من نادى بها، بل دعا إليها علماء ألمان أمثال "أبسِن" و"تريير (J. Trier)"، وهم ينتقلون من البحث في تاريخ الكلمة إلى البحث في مجالات استعمالها<sup>26</sup>.

ويرى "ماطوري" أنّ كلّ دراسة للمعجم يجب أن تتم من خلال التصنيف إلى حقول دلالية؛ إذ يذهب إلى أنّ: "البحث المعجمي لا ينبغي أن يجرى إلا في نطاق المجموعات"<sup>27</sup>. ويعرف الباحث اللغوي "أحمد مختار عمر" الحقل الدلالي بقوله: "الحقل الدلالي (Sémantic field) أو الحقل المعجمي هو مجموعة من الكلمات ترتبط دلالتها، وتوضع عادة تحت لفظٍ عام يجمعها"<sup>28</sup>.

ومن أشهر المعاجم التي صنفت وفق هذا التصور معجم Greek New Testament وهو مقسّم إلى أربعة أقسام دلالية هي: (الموجودات - الأحداث - المجردات - العلاقات)، وتحت كلّ قسم تدخل أقسامٌ صغرى تدخل تحتها أيضًا أقسامٌ فرعية<sup>29</sup>.

وبذلك فإنَّ أهمَّ ما جاءت به نظريةُ الحقول الدلالية هو التصنيف القائم على الدلالة المعجمية للكلمة، إلا أنَّ السياقَ يبقى له اعتبارُه أيضًا في دراسةِ الكلمة؛ كما يذهبُ إلى ذلك أنصارُ هذه النظرية أنفسهم<sup>30</sup>.

وقد كان الشيخ البشير الإبراهيمي من الفرسان الذين لا يشق لهم غبار في اختيار الألفاظ وتوليد المعاني الدقيقة وفي تبليغ رسالته إلى الآخرين من أبناء أمته، في مرحلة من أدق مراحل الصراع بين الشعب الجزائري وفرنسا الاستدمارية.

وخاصة في عيون البصائر التي دارت مضامينها أساسا على إبراز المعاني الجوهرية في النهضة العربية الإسلامية الحديثة في الجزائر، وذلك بالدفاع عن الدين الإسلامي واللغة العربية، والجزائر وشخصيتها ومقوماتها الأساسية، والعمل على تثبيت هذه المقومات في نفوس أبناء الأمة الجزائرية عام 1954م لخوض ثورة، وهم الذين كانوا يتأهبون في هذه المرحلة بالذات<sup>31</sup>.

والدراسة الدلالية المفهومية لآثار العلامة محمد البشير الإبراهيمي لا بد لها من بعدين جوهريين، بعد لغوي معجمي، توجد شروحه وتصوراته في المعاجم والقواميس. وبعد وظيفي سياقي استعمالى، يرتبط بالحياة العملية، والنماذج السلوكية المميزة لشخصية الشيخ الإبراهيمي وثقافته، والمحيط العام للألفاظ والكلمات المستعملة وقدرتها على إفادة المعنى المقصود، بغرض الإقناع والتأثير في المتلقي.

وقد استعمل الإبراهيمي كلمات كثيرة عربية وأجنبية في آثاره تحمل دلالات جديدة مضافة من عنده في نظام لغوي محكم وعلاقات متناسقة. يمكن أن تكون علاقات تجاور، أو علاقات تنافر وتضاد مع المفهوم المعجمي.

وبدراسة تلك العلاقات فقط في سياق الإبراهيمي ومحيطه، نستطيع استنباط معنى تلك الوحدات المعجمية في الاستعمال في عيون البصائر والغرض من توظيفها في خطاب الإبراهيمي وكتاباته.

أما الحقول الدلالية التي استعمل فيه الإبراهيمي هذه الألفاظ والمصطلحات بمفاهيم مخالفة للمفهوم المعجمي فتتمثل خاصة في:

| أنواع الحقول                               | الألفاظ المستعملة  | الألفاظ العربية   |
|--|--|---|
| الحقل السياسي                              | لاقار، بوليتيك، اللائكية،<br>السانديكا، لافوت،<br>الكومبا... الخ | النقابة، الحزب، فصل<br>الدين على الدولة،<br>الاضطهاد، الحرب،<br>الانتخاب. |
| الحقل الديني                               | إكليرجي، كاتيدرائية،<br>ثيوقراطية.                               | كنيسة، قس، رهبان،<br>رجال الدين   |
| الحقل الاقتصادي                            | الفرنك، الدولار،<br>البورصة، الكولون.                            | المستعمر، العملات،<br>المعاملات، الصرف                                    |
| الحقل الإداري                              | البريفي، ديكري، دوسي.  | القطاع الخاص، الملف،  |
| حقل وسائل قمع<br>الاستعمار للأمة الجزائرية | البوليس، الكوميسير،<br>الجندرمة، ميكروب،<br>اندريجان، لكلاش.     | الشرطة، الدرك،<br>الأهالي، الضباط، الجيش،<br>البندقية                     |

أولاً: الحقل السياسي:

نأخذ كلمة (بوليتيك) (politique) السياسة:

لقد تعامل البشير الإبراهيمي مع مصطلح بوليتيك (Bolitique) للإشارة لكل ما تعلق بسياسات المستعمر الفرنسي والأحزاب ومواقفهم وتظاهراتهم، وهو في الأصل تحريف للمصطلح الأساسي سياسة (Politique)، فقد قام بأدلة المصطلح الأساسي ليصبح له معنيان:

الأول: بوليتيك (bolitique) أضحى يشير إلى التعاملات الخاطئة والملتوية للنظام السياسي الفرنسي ولكل ما تعلق بالفعل السياسي سواء من طرف النظام أو الأحزاب

السياسية، بل أضحى عند البشير الإبراهيمي يشير إلى أي كلام فارغ وغير مسؤول لأي شخص سواء كان سياسيا أو مواطنا بسيطاً، لأن تحوله كان عن قصد؛ فعملية تعويم مصطلح السياسة وتفرغها من محتواها الأصلي يحيل إلى بداية لامبالاة الشعب الجزائري بالشأن السياسي وفي نفس الوقت إلى تخوينه وعدم ثقته في أي طرف يتكلم في الشأن السياسي حتى ولو كان وطنياً صادقاً ومخلصاً في عمله.. هذا التحول في الدلالة المصطلحية لمصطلح السياسة يستفيد منه النظام الحاكم بالدرجة الأولى، لأنه لا يخسر شيئاً بما أن في يديه مقاليد الحكم، والخاسر الأكبر فيه هو ذلك السياسي وذلك الحزب الوطني والمخلص في تعاطيه للشأن السياسي ومعارضته لأساليب نظام الحكم التجهيلية والإفسادية لكل ما من شأنه أن يشكل خطراً على كرسيه.

الثاني: أما المصطلح الأصلي وهو سياسة (Politique)، لم يعد له وجود تقريباً عند المواطن البسيط غير المثقف (ولو كان متعلماً) بحكم اكتساح المصطلح المحرف لغة واصطلاحاً، فأضحى هذا المصطلح ودلالاته المصطلحية محصوراً عند النخبة المثقفة والمسيبة فقط؛ في حين أن عامة الشعب عند مخاطبته بهذا المصطلح لا يستقر في إدراكه سوى المصطلح الأول المحرف ويعتبر كل ذلك الكلام مجرد بوليتيك أو بالتعبير المعرب للكلمة (هف وكلام فارغ)؛ مما يهدد (وقد هدد ونقذ تهديده في الجزائر) بتآكل الثقة والانفصال بين عامة الشعب وبين من يريد التغيير للأفضل في السياسة الفرنسية.

يبدو أن الإبراهيمي يعمد إلى استعمال هذه المصطلحات ويعمد إلى مخالفة دلالتها المعجمية، ويضفي عليها دلالات مرتبطة بالتداول والاستعمال الاجتماعيين، مما يؤكد صلته الشديدة بواقع مجتمعه السياسي والاجتماعي والاقتصادي.

ويقدم هذه الألفاظ للقارئ فيدله على الحالة الساخرة المرتبطة بالممارسة اليومية، حتى يقف منها السامع أو القارئ موقف المنتقد الرافض لها، وهذا يعد سلوكاً وضرباً من المقاومة الشعبية ضد الممارسات الاستعمارية المكشوفة منها والمستترة.

نأخذ أيضاً من هذا الحقل كلمة (ديمقراطية).

دلالات مصطلح الديمقراطية: لمصطلح الديمقراطية - ككل المصطلحات - دلالات متعددة في كتابات البشير الإبراهيمي، وطبقا لهذا التعدد الدلالي فإن لمصطلح الديمقراطية دلالاته العامة الذي تشترك في فهمه كل الفلسفات والمناهج، هذه الدلالة تتصل بالأصل الإغريقي للمصطلح والذي ترجمته حكم - سلطة - الشعب، ومضمونها "أن يكون التنظيم القانوني للمجتمع متفقا مع ما يريده الناس فيه"<sup>32</sup>، وطبقا لهذا المضمون فإن الديمقراطية منهجيا هي أسلوب المجتمعات في حل مشكلاتها، من خلال حرية الرأي للجميع، حرية التفكير للجميع، عمل الجميع في تنفيذ رأي الأغلبية، مع احترام حرية المعارضة. وفيها هي نظام فني لضمان سلطه الشعب ضد استبداد الحكام. وهنا يمكن أن نضيف القواعد والأساليب التي قدمتها الليبرالية للديمقراطية كنظام فني: ما دام الناس قد ولدوا أحرارا فلهم أن يختاروا النظام القانوني الذي يريد (الاستقلال السياسي)، ولهم أن يعبروا عن هذا الاختيار تعبيرا حرا سريرا (الاستفتاء)، فإذا كانوا من الكثرة بحيث لا يستطيعون أن يقولوا جميعا ما يريدون فليختاروا من يتحدث باسمهم وينوب عنهم في التعبير عن إرادتهم (التمثيل النيابي)، وعندما يختلفون لا يكون ثمة إلا أن يؤخذ برأي الأغلبية احتراماً للمساواة بينهم (حكم الأغلبية)، على أن يكون للأقلية الحق في التعبير عن رأيها احتراماً للمساواة ذاتها (حرية المعارضة)...

كما أن لمصطلح الديمقراطية دلالاته الخاصة؛ أي ما يكتسبه المصطلح من معنى كمحصلة لتطبيقه في واقع اجتماعي معين زمانا ومكانا، والمعنى الذي تنفرد بفهمه فلسفه ومنهج معينين، ومثال لهذه الدلالة الديمقراطية الليبرالية من حيث هي محصلة تطبيق مفهوم الديمقراطية في واقع المجتمعات الغربية منذ القرن السابع عشر، وطبقا للمعنى الذي تنفرد بفهمه الليبرالية كفلسفة ومنهج معرفه. إن شيوع الديمقراطية الليبرالية أو الشكل الليبرالي للديمقراطية كمحصلة لعوامل تاريخيه معينه، الاستعمار، التغريب، انهيار الكتلة الاشتراكية... لا يلغي حقيقة أن الديمقراطية الليبرالية هي دلالة خاصة منفردة لمصطلح الديمقراطية يدل على هذا:

أولاً: أن الديمقراطية الليبرالية ظهرت تاريخياً في مرحلة تاريخية لاحقة، بدأت في القرن السابع عشر وما تزال قائمة لم تنقض تماماً.

ثانياً: قبل ظهور الديمقراطية الليبرالية النيابية، كان هنا صيغه أخرى للديمقراطية، أكثر تعبيراً عن المصطلح في أصله الإغريقي، والذي يقتضي أن يكون الشعب هو الفاعل، أي هو الذي يحكم نفسه حكماً مباشراً بأن يجتمع المواطنون ويشتركون في مناقشة مشكلات مجتمعهم، ويتخذون القرارات اللازمة لحل تلك المشكلات لتكون بعد هذا ملزمة للكافة في سلوكهم فتتحول إلى واقع، هذه الصيغة أطلق عليها اسم الديمقراطية المباشرة. وكانت هذه الصيغة سائدة في عصر الحضارة الإغريقية<sup>33</sup>.

غير أن مفهوم الديمقراطية عند الإبراهيمي مناقض لمعناه القاموسي الثابت، فهو عنده يحمل مفهوماً مرتبطاً بالممارسة الاجتماعية والواقع المعيش. يقول عن الديمقراطية في مقال له بعنوان (كل ما تمظلومة)<sup>34</sup>.

الديمقراطية رأي يوناني نظري جميل، منسوب إلى اسم صاحبه، وهو قائم على أن الشعب هو مصدر السلطة، ومن ثم فهو صاحب الحق في الحكم والتشريع وعلى أن الأفراد متساوون في هذا الحق، ولكنه عندما يرى الديمقراطية في الممارسة الاستعمارية يراها شيئاً آخر، فأضاف مفهوماً للديمقراطية الاستعمارية وهي الديمقراطية الصناعية التي أصبحت تقابل الديمقراطية الطبيعية في علاقة تضاد<sup>35</sup>.

إن للديمقراطية الطبيعية قيمة تتمثل في الحرية والمساواة والعدل والتسامح تفترض ضرورة قبول الآخر والتعامل معه على قدم المساواة، وهي لا تختلف عن جوهر الإسلام، وقد سماها أيضاً الديمقراطية العمرية، وهي ذات قيمة دلالية ثابتة في المكان والزمان، أما الديمقراطية الصناعية فهي التي تسعى فرنسا إلى تطبيقها في الجزائر وهي ذات قيمة دلالية متغيرة.

ويذكر الإبراهيمي في مقال آخر: "إن الشعب الجزائري، مريض متطلع للشفاء، وجاهل متوثب إلى العلم، وبائس متشوق للنعيم، ومنهوك من الظلم مستشرف إلى العدالة، ومستعبد ينشد الحرية، ومهضوم الحق يطلب حقه في الحياة، وديمقراطي على الفطرة والدين، يحن إلى الديمقراطية الطبيعية لا الصناعية، ولكنه ليس كما يقال عنه: جائع يطلب الخبز فإن وجده

سكت" <sup>36</sup>. وفي نص آخر تحول مفهوم الديمقراطية عنده إلى المعنى المضاد أي المرادف للدكتاتورية التي وردت عنده بكثرة أيضاً <sup>37</sup>.

قال سنة 1947م أصبح استعمار الأقوياء للضعفاء ديمقراطية وتقتيلهم للعزل الأبرياء ديمقراطية، ونقص المواثيق الديمقراطية، لك أيتها الديمقراطية <sup>38</sup>.

ثم قارنها في مقال آخر سنة 1949م مع لفظ الديكتاتورية في نسق تجاور وترادف بصريح العبارة، كما قارن اللائكية بالمسيحية للغرض نفسه قال: " كأني بهذه الحكومة اللائكية المسيحية - معا - الديمقراطية الديكتاتورية معا" <sup>39</sup>.

فهذا التركيب ليس طباقاً عند الإبراهيمي بل هو ترادف وتوكيد، لفظي، فالحكومة الفرنسية لائكية، ولكن حكامها في الجزائر رهبان يعلمون على محاربة الإسلام، وينشرون المسيحية وهي تنتسب إلى جمهورية ديمقراطية لكن ممارسات حكامها في الجزائر ممارسات دكتاتورية <sup>40</sup>.

كذلك استعمل لفظ (الكولون) بدل لفظ المعمر، لأنه يعرف وقع معناها في الوسط الاجتماعي الجزائري غير مفهومها في القاموس الفرنسي، فهم في نظر الجزائريين أولئك الغزاة الذين أخذوا أراضي الجزائريين بالقوة والقهر ظلماً وعدواناً، ونهبوا وسلبوا، وقتلوا من الجزائريين ما قتلوا، فهم مدمرون وليسوا معمرين.

فلفظ (الكولون) يؤدي دلالة السخط والكره والتحقير، وكان بإمكان الإبراهيمي استعمال لفظ (المعمر) ولكنها قد تؤدي هذه الأخيرة معنى مخالفاً للأول وهو إصلاح الأرض الشاغرة وتعميرها وتطويرها، وهو المعنى المعجمي لمادة تعمير وعمران: وهو تطوير البلد زراعياً وصناعياً وتجارياً وبناءً، ولكن معنى الكولون هو التخريب والتدمير وليس التعمير <sup>41</sup>.

### خاتمة:

في الأخير نخلص إلى:

- السياق له أثر كبير في تحديد معنى الكلمة، والقرائن المسوقة داخل السياق، ولا تتحدد قيمة أي عنصر لغوي نهائياً وكلياً إلا من خلال سياقه وما يحيط به من ألفاظ تحدد معناه وقد

استعمل البشير الإبراهيمي المصطلحات العامية والأعجمية وفق ما يقتضيه السياق من توعية ونقل رسالة لعامة الشعب الجزائري.

- اللفظ والمعنى كان محط أنظار الإبراهيمي ، وهذا ما نلمسه في المعجم اللغوي الذي وُضفه في أعماله التي تعكس الإطار الأيديولوجي الذي التزم به في التعبير عن القضايا الاجتماعية.

- إنَّ نقل دراسة المعجم من المجال اللغوي - الذي نشأ في أحضانه - إلى مجال الاستعمال في آثار الإبراهيمي، والشعرية خاصة، تقتضي تجاوز مجرد الوصف والتصنيف، بالاعتماد على الدلالة المعجمية الأصلية، وعلى نظرية الحقل الدلالية، إلى دراسة السياق الذي يخضع له هذا المعجم داخل العمل الأدبي؛ لكونه مجالاً للانزياح وإكساب المعجم دلالاتٍ تختلفُ في درجة اقتربها من الدلالات الأصلية أو ابتعادها عنها، ولأنه في مفهومه العام يسمح بالخروج من الانغلاق البنوي للنص.

### الهوامش:

- 1- الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر بيروت ط2/1952م
- 2- مذكرات محمد خير الدين، ج2 ص412.
- 3- المعجم الوسيط، دار عمران ط3، ج2 ص607.
- Le nouveau petit Robert , dicorobert Inc ; -Montréal Canada 1993, 4  
P : 1276 ( Lexique )
- 5- تقنيات التعبير في شعر نزار قباني، بروين حبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط1/1999م، ص53.
- 6- من الصورة إلى الفضاء الشعري، ديزيره سقال، ص38.
- 7- علم الدلالة، بيار غيرو، ترجمة أنطوان أبوزيد، منشورات عويدات بيروت - باريس ط1/1986م، ص42.
- 8- السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، علي آيت أوشان، دار الثقافة الدار البيضاء ط1/2000م، ص41.
- 9- تقنيات التعبير في شعر نزار قباني، بروين حبيب، ص52.
- 10- علم الدلالة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب القاهرة ط4/1993م، ص116.
- 11- في علم الدلالة، دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفضليات، عبد الكريم محمد حسن جبل، دار المعرفة الجامعية مصر 1997م، ص22.

- 12- علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص 68 - 69.
- 13- منهج المعجمية، جورج ماطوري، ترجمة عبد العلي الودغيري، منشورات كلية الآداب بالرباط 1993م، ص 10.
- 14- علم الدلالة، بيار غيرو، ص 107.
- 15- المصدر نفسه، ص 29.
- 16- منهج المعجمية، جورج ماطوري، ص 38.
- 17- السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، علي آيت أوشان، ص 18.
- 18- أساليب الشعرية المعاصرة، صلاح فضل، دار الآداب بيروت ط1/1985م، ص 45.
- 19- بنية اللغة الشعرية، كوهن، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال الدار البيضاء ط1/1986م، ص 107.
- 20- بنية اللغة الشعرية، كوهن، ص 106 - 107.
- 21- أساليب الشعرية المعاصرة، صلاح فضل، ص 107.
- 22- البويطيقا- فن صياغة اللغة الشعرية، علاء الدين رمضان السيد، مجلة علامات في النقد العدد 28 يونيو 1998م، ص 263.
- 23- في علم الدلالة، عبد الكريم محمد حسن جبل، ص 23.
- 24- علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص 79-80.
- 25- الدليل النظري في علم الدلالة، سعودي النازري أبوزيد، ص 80.
- 26- منهج المعجمية، جورج ماطوري، ص 6 (مقدمة المترجم).
- 27- المرجع نفسه، ص 129.
- 28- علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص 79.
- 29- المرجع السابق، ص 87.
- 30- المرجع السابق، ص 80.
- 31- العلاقة بين اللفظ والمعنى بين المفهوم المعجمي والاستعمال عند البشير الإبراهيمي، عبد الله بوخلخال.
- 32- عصمت سيف الدولة، الطريق، ج 2، ص 93.
- 33- عصمت سيف الدولة، الديمقراطية والوحدة العربية.
- 34- المنشور في العدد الأول من جريدة البصائر السلسلة الثانية سنة 1947م.
- 35- عيون البصائر، ص 584 .
- 36- نشر في العدد 81 من جريدة البصائر سنة 1949م.
- 37- عيون البصائر، ص 79 .
- 38- المصدر السابق، ص 585 .

39- اللائكية: وهي المقابل العربي لكلمة (Laïcité) الفرنسية لفظة مستحدثة في اللغة العربية، تعرف كذلك بالعلمانية، المشتقة من اليونانية (Laikos) أو (Laos) ومن اللاتينية (Laicus) والتي تعني العامي أو ابن الشعب أو المدني غير المتعلم في مقابل الكاهن أو (Le Clerc) التي تطلق على رجل الدين الذي تلقى تعليماً، واللائكية هي نقيض الإكليريكية التي تعرف كتوجه يقول بضرورة تدخل رجال الدين في الشؤون العامة. كما يفيد مصطلح الإغريقي (Laos) وحدة المتساكنين الذين ينظر لهم ككل لا يقبل القسمة أو التمييز، وبذلك تطلق صفة اللائكية على رجل من الشعب دون أن تميزه أو تجعله في مقام رفيع: فلا دور معترف به له من قائد المدينة ولا سلطة له لكي يفرضه قناعاته على الآخرين. أما في الاصطلاح: تعني اللائكية فصل الدين عن الدولة، وعلى هذا الأساس يتحرك المفهوم ضمن الحقل السياسي. تسمح لنا الدلالة الاشتقاقية من بيان الدلالة الاصطلاحية إذ تعلن اللائكية وحدة الشعب على أساس من الحرية والمساواة في الحقوق: حرية الاعتقاد التي لا تخضع لأي توجيه والمساواة فيما يتصل بالقناعات الذاتية أو الشخصية، فليس ثمة أي أفضلية بين التوحيد أو الإيمان بتعدد الآلهة، أو بين الفكر الحر والتصوف.

40- عيون البصائر، ص 89 .

41- العلاقة بين اللفظ والمعنى بين المفهوم المعجمي والاستعمال عند البشير الإبراهيمي، عبد الله بوخلخال.